٣٢ ـ المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي اودرد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل العاشر ـــ « الخرافات »

ولما تولى الولي السابق ذكره أعماله أخذ يتجول في قسمه فرأى بائع فول يبيع لحرفائه كالعادة . فتناول حجراً وكسر بها قدر الفول ، فقفز البائع إليه وتناول جريدة بالقرب منه وضرب الولي بها ضرباً مبرحاً . ولم يشك الولي ولم يصرخ وانصرف حين أذن له . وحاول بائع الفول بعد انصراف الرجل أن يلتقط بعض ما تناثر من القدر ، وكان قد بقي منها قطعة في مكانها ؛ فلما نظر البائع فيها رأى ثعباناً سماً ميتاً . فصاح مرتاعاً مما فعل : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! أستغفر الله العظيم . ماذا فعلت ؟ هذا الرجل ولي وقد أتلف الفول الذي كاد يسمم حرفائي » . وجعل ينظر إلى كل مار طول هذا اليوم عسى أن يرى مرة أخرى الولي الذي أساء إليه ليستغفره . ولكنه لم يره لأن الولي كان مريضوض الجسم لا يستطيع أن يمشي . وفي اليوم التالي نهض الولي بالرغم من ورم أعضائه وأخذ يعرج خلال قسمه فكسر جرة لبن كبيرة في دكان لا يبعد عن دكان بائع الفول كثيراً ، فعامله اللبان معاملة الفول . وبينما كان يضربه أسرع بعض الناس إليه وأخبروه أن هذا الرجل الذي يضربه ولي ثم سردوا عليه قصة الحية التي كانت في قدر الفول وقالوا اذهب وانظر جرتك فستري فيها شيئاً سائلاً أو نجساً . ونظر الرجل فوجد في بقية الجرة كلباً نافقاً . وفي اليوم الثالث سار الولي في الدرب الأحمر يعرج على عصا متألماً ، فرأى خادماً يحمل على رأسه صينية عليها أطباق من اللحم والخضر والفاكهة أعدت لجماعة كانوا ذاهبين إلى النزهة في الريف فوضع الولي عصاه إذ ذاك بين رجلي الخادم فقلبه ، وتناثرت محتويات الأطباق في الشارع ، فأخذ الخادم يصب على الولي اللعنات ويضربه ضرباً عنيفاً ، وتجمع الناس ولاحظ أحدهم كلباً يأكل من هذا الطعام ثم لم يلبث

السفير

يسكن هذه الجزيرة أربعة ملايين ونصف مليون من الأنفس، وقد قدموا إليها من الهند في عصور متفاوتة ومعظمهم بوذيون ديناً . وفي كاندي معبد يسمى معبد السنة The Temple of the Tooth وهو من أعظم المعابد حرمة وقدسية لدى البوذيين . أما الباقون فيدينون بالهندوكية وقد جاءوا سيلان من الهند قديماً كعزاة ؛ أما اليوم فإنهم يهاجرون إليها كعمال يعملون في مزارع الين والشاي والمطاط . وفي الجهات الجبلية ما زال بعض القبائل تعيش على الفطرة

وقد كانت هذه الجزيرة تابعة لحكومة الهند ، ولكن منذ سنة ١٨٠٢ فصلت عنها وأصبحت مستعمرة تابعة للتاج البريطاني

كولمبو

عاصمة الجزيرة وتقع على شاطئها الغربي وقد كانت محط أنظار اليابانيين وإليها وجهوا أول جهودهم وذلك بالنسبة لما لموقعها من أهمية : فهي محطة للفحم ، منها تتزود السفن المحيطية القادمة من أوربا إلى استراليا والشرق الأقصى ، وبها تمر السفن القادمة من شرق الهند إلى غربها تفادياً للمرور من مضيق (بلك) الضحل ، فمعنى الاستيلاء عليها تعذر المواصلات بين شرق الهند وغربها وبين بريطانيا واستراليا ، وإضعاف مركز بريطانيا الحربي إضعافاً كبيراً

وقد علقت الديلي تلغراف على هجوم اليابانيين على كولمبو وسيلان فأشادت بالنصر العظيم الذي أحرزته القوات البريطانية في دفع العدوان الياباني عن الجزيرة ونبهت إلى أهمية موقع الجزيرة قائلة : « ولسنا نرى في جزيرة سيلان حصناً لحراسة الهند ومواصلات الهند مع الشرق الأوسط وأوربا فحسب ، ولكننا نرى فيها أيضاً مركزاً قوياً لتركيز الكرات وتوجيهها إلى خطوط الهجوم اليابانية البعيدة الانتشار »

أبو الفتوح عطيفة

أن نفق . فسارع إلى منع الخادم من ضرب الرجل وأخبره بالحادث الذى أثبت ولايته . فجعل الخادم يعتذر للولى ويرجوه أن يصفح عنه . غير أن الرجل سئم وظيفته الجديدة فابتهل إلى الله وإلى القطب أن يعفى منها ، وأجيب إلى توسلاته واستردت قدرته الخارقة للعادة . فعاد إلى دكانه وهو أسعد من قبل

هذه القصة يتقبلها القاهريون كأنها حقيقة ومن ثم أدرجتها هنا . لأننا عند الكلام على الخرافات نواجه الآراء أكثر مما نواجه الأفعال . ولست متأكداً أن القصة جميعها كاذبة ؛ فقد يكون هذا الولى المزعوم قد استخدم من يدخل الثعبان أو الكلب فى الوعاءين اللذين كسرهما . وقد قيل لى إن أكثر من واحد قد اشتهر بالولاية بمثل هذه الحيل

وفى مصر أولياء كثيرون يتقشفون تقشف النساك الهنود . وفى القاهرة الآن ولىّ طوّق عنقه بالحديد ، وشد نفسه إلى أحد جدران غرفته وظل على ذلك ثلاثين عاماً ، كما يقال ؛ ويزعم البعض أن هذا الولى كثيراً ما شوهد متدثراً كالنائم بملاءة ، ثم بعد ذلك مباشرة تزاح الملاءة عنه فلا يجدونه تحتها . ويذكر هذه القصص ويؤمن بها قوم يتمتعون بالعقل الرشيد . والضحك من هذه القصص أو عدم تصديقها يثير السخط الشديد . وقد حكى لى أخيراً أن ولياً قطع رأسه لجرم لم يرتكبه ، فتكلم بعد فصل رأسه عن جسده[1] ، وأن آخر حز عنقه فى أحوال مشابهة نخط دمه على الأرض إعلان براءته : أنا ولى من أولياء الله وقد مت شهيداً .

وهناك ظاهرة غريبة فى خلق المصريين وغيرهم من الشرقيين وهى أن المسلمين والمسيحيين واليهود يتخذون خرافات بعضهم بعضاً بينما يعتنقون العقائد الأصلية . وقد يستخدم المسلمون عند المرض قس النصارى واليهود للدعاء لهم ، وكذلك النصارى واليهود يدعون الأولياء المسلمين للغرض نفسه . ومن المألوف أن ترى المسيحيين يترددون على الأولياء فيقبلون أياديهم ويسألونهم الدعاء والنصح . ويمنحونهم المال والعطايا .

وينسب المسلمون إلى الرسول معجزات كثيرة لا يقرها الإسلام . وهم يقولون أن هناك معجزات كثيرة لا تزال تتم إكراماً للنبى وشاهداً على رعاية الله له . ويروى الحجاج الذين زاروا المدينة أنهم يرون كل ليلة شعاعاً من النور الساطع يشع من قبة القبر النبوى إلى ارتفاع هائل إلا أن الشعاع يختفى عن الناظر عند ما يقترب من القبر[1] . وهذه معجزة من أكثر المعجزات اعتباراً ويروون أنها تشاهد للآن . وقد سألت أحد أصدقائى الحصفاء عن صحة هذا الزعم فأيده وجزم أنه كان يرى الشعاع كل ليلة مدة إقامته بالمدينة . وقال : إن ذلك دليل على رضا الله وإكرامه لسيدنا محمد (ص) ، ولم أجرؤ أن استفهم عن حقيقة ما يزعم رؤيته بعينه ولا الإشارة إلى أن أكثر الأنوار التى تضاء فى المسجد كل ليلة قد تحدث ذلك الأثر . غير أنى سألت صديقى أن يصف لى بناء القبر وقبته الخ ؛ فأجاب أنه لم يدخل الضريح ولا الكعبة لاضطراب أعصابه نتيجة لإعظامه هذه الأماكن المقدسة وخاصة قبر الرسول الذى يؤثر فيه تأثيراً شديداً ؛ ولأنه حنفى المذهب لا يليق به أن يسير فوق هذه الأرض المقدسة ويتعرض كل حين لكاره المشى حافياً ، ومن ثم كان عليه فى هذه الحالة أن يلبس خفا داخل الحذاء الخارجى ، وهذا ما لا يقدر عليه . ويزعم الحجاج أيضاً أنهم يرون دائماً على مسير ثلاثة أيام من المدينة نوراً فى اتجاه المدينة المقدسة ويعتقدون أنه ينبعث من قبر الرسول. ويقولون إنهم حيثما يتجهون يشاهدون هذا النور تجاه المدينة . ولهذه الروايات جمال يؤثر فى النفوس

ويحمل المسلمون ، وبخاصة المصريون ، على اختلاف مذاهبهم ، ما خلا الوهابيين ، للأولياء المتوفين احتراماً وتقديساً لا سند لهما فى القرآن أو الأحاديث ، أكثر مما يحملون للأحياء منهم . ويشيدون فوق أغلب قبور الأولياء المشهورين مساجد كبيرة جميلة . وينصبون فوق قبور من هم أقل منهم شهرة بناء صغيراً مربعاً مبيضاً بالكلس ومتوجاً بقبة . ويقام فوق القبر مباشرة نصب مستطيل من الحجر أو القراميد يسمى

(١) مثل رأس الحكيم « دوبان » فى حصص ألف ليلة وليلة

(١) يقال أيضاً أن هناك ظواهر مشابهة أقل بهاء تميز بعض قبور المدينة وغيرها

(تركية) ؛ أو من الخشب ويسمى (تابوتا) ، ويغطى النصب عادة بالحرير أو الكتان المطرز ببعض الآيات القرآنية ، ويحيط به قضبان أو ستر من الخشب يسمى (مقصورة) . وأكثر أضرحة الأولياء فى مصر مدافن إلا أن أكثرها يحتوى على آثار قليلة لهم . وبعضها ليست إلا قبوراً فارغة أقيمت تذكاراً للميت . وأكثر هذه المقامات قدسية مقام الحسين إذ يقال إن رأس الحسين الشهيد مدفون به . ومنها أيضاً مسجد السيدة زينب وهو دون الأول قدسية . ومسجد السيدة نفيسة ، ومسجد الإمام الشافعي الذى ينتمى إلى مذهبه أكثر القاهريين . وتوجد هذه الأبنية السابقة ما خلا الآخرين داخل العاصمة . أما مسجد السيدة نفيسة فهو فى إحدى الضواحى الجنوبية ، ومسجد الإمام الشافعى فى القبرة الجنوبية الكبيرة

ويزور المصريون هذه الأضرحة وغيرها أحياناً إما إجلالاً للميت أو قياماً بأعمال تستحق الثواب لأجل هؤلاء المكرّمين معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات ، وإما بقصد التماس البرء من مرض أو طلب النسل ، مقتنعين أن فضائل الميت تكفل قبول دعواتهم قبولاً مرضياً . ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله ويقدمون لهم النذور . ويحيى الزائر عند وصوله الضريح بالسلام ويسلم عليه أيضاً عند دخوله المدفن . ولكنى أعتقد أنه قلما تراعى هذه العادة الأخيرة . ويواجه الزائر رأس الميت ، ومن ثم يولى القبلة ظهره . ويطوف حول المقصورة من اليسار إلى اليمين ، ثم يقرأ الفاتحة بصوت لا يسمع أمام باب المقصورة أو أمام جوانبها الأربعة . وقد يتلو بعد ذلك سورة أطول من الفاتحة ، كما قد يتلو فى هذه الحالة (خاتمة) . وتقرأ هذه الأدعية لأجل الولى وإن كان يعتقد أيضاً أن الأجر ينعكس على الزائر الذى يتلو الصلاة . ويختم الزائر ذلك عادة بقوله : « إنى وهبت ما قرأت من القرآن الكريم إلى من نذر له هذا المكان » أو « إلى روح هذا المولى » . ويبقى ثواب ما قرىء للقارئ وحده إذا لم يبين ما سبق أو لم يقصده . ويبتهل الزائر بعد تلاوة هذا إلى الله لاستدرار النعم فيقول عادة : « اللهم أوصل إليك بالرسول وبمن وقف له هذا المكان أن تهبنى هذه النعمة وتلك الأخرى » أو « صلى على الله وعليك يا من كُرّس لك هذا المكان » . ويواجه البعض وهو يفعل ذلك جانباً من جوانب المقصورة . ويقال إن اللائق أن يواجه الإنسان المقصورة والقبلة ؛ ولكنى أعتقد أن القاعدة نفسها تراعى فى هذه الحالة كما تراعى فى السلام ؛ وتوضع اليدان أثناء ذلك وضع الابتهال الخاص عقب الصلاة العادية ثم تسحبان بعد ذلك على الوجه . ويقبّل الكثير من الزائرين عتبة باب المقام وجدرانه ونوافذه ومقصورته الخ . . . إلا أن الشديد المحافظة يستقبح هذا الاعتبار تقليداً لعادة مسيحية.

ويوزع الأغنياء والميسورون عند زيارتهم قبور الأولياء المال أو الخبز على الفقراء . وكثيراً ما يمنحون السقائين نقوداً ليفرقوا الماء على الفقير والظمآن إكراماً للولى[1] . وهناك أيام خاصة فى الأسبوع لزيارة بعض الأضرحة . فيزور الرجال مسجد الحسين على الأكثر يوم الثلاثاء ، والنساء يوم السبت . ويزورون مسجد السيدة زينب يوم الأربعاء ، ومسجد الإمام الشافعى يوم الجمعة . والعادة فى هذه الحالات أن يحمل الرجال معهم آساً يضعون بعضه على النصب أو فوق الأرضية داخل المقصورة ، ويأخذون الباقى ثانية لتوزيعه على الأصدقاء . ويضع الفقير أحياناً خوصاً ، كما يفعل أغلب الناس على قبور الأصدقاء والأقارب ، وتضع نساء القاهرة بدل الآس والخوص وروداً وزهورا وياسمينا .

(يتبع)

عبد الحليم محمود

(١) أنظر الكلام على السقائين فى الفصل الرابع عشر .

حكم فى القضية ٢٠٦ جنح عسكرية طنطا سنة ١٩٤٢ ضد عبد الوهاب السيد الهوارى بتسليمه لوالده لامتناعه عن بيع السكر بالسعر المحدد بجلسة ٢٣ فبراير سنة ١٩٤٣

حكمت محكمة بنها العسكرية فى القضية ٤١ بنها سنة ١٩٤٢ بجلسة ٥ يناير سنة ١٩٤٢ بحبس يومى أحمد منصور دويدار شهرا مع الشغل والنفاذ والنشر لبيعه بأزيد من التسعيرة